محاضرة رقم 12:

تطبيقات الحجاج في المناظرات الكلامية:

ارتبط الحجاج بالإنسان منذ القديم حتى صار فيه جبلّة تغذيها النزعة الذاتية تجاه ما يواجهه من مواقف وأحوال في حياته اليومية؛ ذلك لأن الإنسان لديه رغبات وميولات نفعية يسعى إلى الدفاع عنها بشكل تلقائي بما يمتلكه من مؤهلات فكرية وملكات إدراكية وكفاءات منطقية.

وإذا كان ظهور الحجاج مرتبطا ببروز الوعي الإنساني فإن نظرياته لا تزال في التأسيس والتشكل إلى يومنا هذا، فهي تشهد كل يوم ظهور مؤلفات جديدة تغني هذه النظرية وتثريها، ولعل هذا يعزى إلى سعة موضوعه وتعدد مشاربه، وتداخله مع علوم معرفية مختلفة كالفلسفة والمنطق، والبلاغة واللسانيات، مما جعل كل باحث ينطلق في دراسته من ميدان تخصصه.

ويعدّ خطاب المناظرة في التراث العربي من أبرز أنواع الخطابات التي تهدف إلى الإقناع، إذ تظهر فيه سمات الكفاءات التداولية والقدرة على توظيفها حسب متطلبات السياق، فهو المطلب الأساسي في المناظرات، سواء كانت دينية، أو سياسية، أو لغوية...[1].

الحجاج والتأويل في خطاب المناظرات:

يعد خطاب المناظرة من أهم الخطابات التي تحتاج إلى استخدام العقل والتأويل، وإذا كان لزاما على المخاطب إقناع مخاطبه في هذا الصنف من الخطابات فهذا يعني أن خطاب المناظرات هو خطاب حجاجي بامتياز، يحتاج إلى توظيف كل الآليات اللغوية والسياقية الخارجية للإقناع، كما يحتاج إلى تداخل علمين طالما اعتقد المنظرون أنهما منفصلان ألا وهما الحجاج والتأويل.

[1] - ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص449.

يعد الحجاج رافدا من روافد التأويل، إذ أن المؤول حين يحاجج خصمه يحاول أن ينتصر لزعم تأويلي على حساب زعم تأويلي آخر يعتقد بفساده، وهو ما يجعل الحجاج آلية تصنع الكون التأويلي، وتبني عوالم الاعتقاد الممكنة. فهذا التصاهر بين الحجاج كعملية مركبة تتجمع في محيطها كفاءات مختلفة، مثل اللغة والتداول والتعامل والعقائد والتصورات... وبين العمل التأويلي كعمل يتجاوز حدود العملية التفسيرية التي لا يشغلها سوى التأصيل الابستمولوجي، والضبط المعجمي الدلالي ليحل في محيط الدائرة التأويلية[2].

إن هذا الكيان الذي حمل في داخله نواة التفاعل بين فرعين علميين طالما اعتقد المنظرون افتراقها؛ نعني الحجاج كفرع معرفي مأسور بالأشكال المنطقية، معتمد على الضوابط الرياضية، والتأويل كفرع معرفي تغريه الأبعاد وتلهيه بواطن النصوص وما تتضمنه من خلجات نفسيه وأغوار روحيه، تحملها أبنية الكلام وتتضمنها حوامل اللغة، كيان رأب الصدوع المفترضة، بين المبتغى التأويلي وآلاته المساعدة، وهو ما يعني أن الحجاج هو آلية لدفع السيرورة التأويلية، أنتج كيانا اصطلح أطلق عليه المحاجج/المؤول[3].

فالمؤول يجد نفسه "مدفوعا اقتضائيا إلى ممارسة جبروته الرمزي، وتصريف كفاءته اللسانية والدينية تصريفا يفتك من الجمهور طاعته، ويغتصب من السامع إرادته، فيصير طوع المحاجج/ المؤول يشكل هيئته ويعين دوره، ويرسم أفق انتظاره، وهو ما جعلنا نفسر سيادة تأويل على تأويل بشرطين ضروريين كافيين، هما:

- الكفاءة الحجاجية البرهانية
- الكفاءة التداولية الاجتماعية"[4].

---

[2] – ينظر: علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص463

[3] – ينظر: علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص463.

[4] – المرجع نفسه، ص483-484.

لذلك فإن "الظفر بعصا طاعة الجهور مشروط بالأفعال الخطابية والنجاعات البرهانية التي يحدثها قول المحاجج في جمهوره، اذ كلما كانت تلك الأفعال توافقية مع قواعد المجال التداولي (حاجات الجمهور/ أشراط القول/ مقامات التلفظ...) كان الحجاج ناجعا، والتأويل نافذا، وكلما كانت تلك الأفعال تخالفية مع قواعد المجال التداولي كان الحجاج باردا، والتأويل قاصرا، لذلك اشترط المنظرون في الحجاج الناجع التوافق، وعلقوا به الانسجام"[5].

من هنا يصبح الحجاج آلية خطابية ورافدا تأويليا يؤثر فيه السياق، فهو مقولة لغوية مركبة لها وصل بمقامات الخطاب وسياق التلفظ، ينوي من خلالها المحاجج/ المؤول "كتابة أنحاته ورسم بلاغاته رسما يحصل منه التيقين، ويجوز من ورائه التمكين، من جهة كونهما معيارين أساسيين بهما تقاس النجاعة، وتضبط من خلالهما القوة البرهانية التي يشغلها الخطاب المرسل والكلام الموجه إلى عموم الجمهور أو خصوصه، وذلك حسب الدواعي المقامية والغيب الاستراتيجي الذي تثوى وراءه نوايا المحاجج، وتتستر خلفه هواجس المستدل"[6].

والمستقرئ لخطاب الشارح يلاحظ غياب تصور نظري متكامل يرسم معالم نظرية حجاجية؛ لأن حاجة أهل العلم في زمنه لم تكن حاجة ملتفة إلى الجوانب النظرية بقدر ما كانت مشغولة بإجراء الكفاءات الاستدلالية المجردة، واللوازم المنطقية الصارمة، والأصول البرهانية الدامغة لتحصين العقائد التأويلية، وترويج النذور المقاصدية التي ينوي المحاجج/ المؤول إثبات شرعيتها، وإقامة الدليل على نجاعتها، وهو ما يعني أن الحجاج في المجال التداولي التفسيري العربي يجرى ويجسد دون تقنين، يوصف ولا يسمى[7].

---

[5] – المرجع نفسه، ص484.

[6] – علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص21.

[7] – ينظر: المرجع نفسه، ص464.